الغريزة الجنسية

طبيعتها وكيف نسوسها

عن بارتنجتون

تمهيد

اختلف العلماء في مسألة الغرائز، واختلط عليهم أمرها أيما اختلاط ؛ فقال فريق منهم : إنها كلها تتساوى أثراً ونفوذاً، وتختلف طبيعة وكنهاً ؛ وقال فريق آخر : إن لها ترتيباً، وبين بعضها البعض اختلافاً متميزاً من حيث استدامتها أو خمودها شتى أطوار الحياة ؛ فمثلا يقولون إنه بينا نرى حب البقاء والدفاع عن النفس هو الغريزة الأولى ، إذ بنا نجد الغريزة الثانية هي غريزة الميل نحو الجنس الآخر، على حين نرى غريزة المحاكاة مثلا هي الغريزة السادسة وهكذا..

ولكن علماء النفس ساروا في عام ١٩٣٠م على أن لا تمايز بين إحدى الغرائز والأخرى ، وما قد يظهر للباحث العادي أنه تمايز وتفاضل، إن هو إلا ظاهرة الخمود أو التأجج، تلك الظاهرة التي تخضع لها الغرائز كل الخضوع في أطوار الحياة السبعة كلها .

لماذا يعتبرونها أولى الغرائز إذاً؟

فاذا رأيتنا بعد ما تقدم نتمادى فنقول إن الغريزة الجنسية هي الغريزة الانسانية الأولى : كما أنها في ذات الوقت الغريزة الحيوانية الأولى ، فلا تحسبنا نفرق بين الغرائز ، وإنما نعنتها بالأولية، لأنها تلازم الانسان في أطواره السبعة ولا تفارقه مطلقاً . . . لهذا فقط ، وليس لأنها أغلب عليه من غيرها أثراً أو إنتاجاً، وليس لكل ما نقرؤه في كتب الأقدمين الذين كتبوا عن الغرائز ، وبينها هذه الغريزة التي نحدثك عنها الآن.

وإذاً فغريزة الميل نحو الجنس الآخر هي الغريزة الأولى لبقائها مع الانسان طويلا ؛ وإذاً فهي أحب الغرائز وأهمها عند الأقدمين من حيث الأثر ، لا من حيث الطبيعة والكنه .

الميل الجنسي هو أصل الحياة :

فاذا صرفنا النظر عن المتصوفين ومن في حكمهم ، ممن يرون أن نقاء السريرة والانقطاع للعبادة، لا يجتمع والمرأة مطلقا ؛ وكذلك إذا صرفنا النظر عن «الشوبنهوريين» القائلين بشيطانية

المرأة ووجوب البعد عنها ، وجدنا أن الميل نحو الجنس الآخر هو بالنسبة للرجل العادى أصل الحياة ، أو ظاهرتها السارية سرياناً سرمدياً ، إن جاز لنا استعمال مثل هذه التعابير القديمة.

وفى استثنائنا هؤلاء المتعبدين نوع من التساهل منا فحسب . . وإلا فمن تلك التى أخرجتهم من الأرحام الظليمة إلى الأرض المنيرة ، يدبون عليها ويسمون ويعرفون عقلا أو نقلا ما عرفوا عن المرأة !؟ ومن تلك التى أعانتهم على الحياة سنوات عشر أو تزيد قليلا ؟! ومن تلك التى أخذت بيدهم إلى طريق المعرفة غير الأم أو الأب ، والأخير نتاج أم أخرى ؟!.

لقد يكون هؤلاء السادة على حق فى فكرتهم عن المرأة ، ولقد تكون الانسانية كلها بتاريخها خاطئة وهم الصائبون ... هذا فرض لا يمكن أن يقام دليل على نقضه أو نقده . . . كما لا يمكن أن يقام دليل على إثباته أو جعله بعيداً عن الشك . أليس هؤلاء السادة أنفسهم هم القائلين لتلاميذهم ومريديهم : إنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بعد أن تجردوا من طبيعتهم الحيوانية أولا والانسانية ثانياً ؟ وإنهم إنما يعيشون بأرواحهم وعقولهم من القلب وليس بأجسامهم وعقولهم من الجسم ؟ فهم ليسوا إذاً بشريين مثلنا تجرى عليهم الطبيعة القواعد !! وإذاً فهم أمام من نوع آخر غير النوع الذى أنا وأنت منه أيضاً . والذى يجوز لى أن أنظر فى خصائصه وينظر فى خصائصى .

نخرج من هذا كله ، بأن ما ذكره هؤلاء السادة عن الغرائز ووجوب كبتها والانصراف عن تنفيذ رغباتها ، لا يمكن أن يفيد أى إنسان يعتقد ديناً من الأديان الثلاثة ، ويعيش فى القرن العشرين . . لأن الانقطاع إلى العبادة فيه عسير جداً .

ونخرج من هذا أيضاً ، بأن الغريزة الجنسية بالنسبة للانسانية كلها ، هى الغريزة الأولى ، فهى الغالبة والمسيطرة على الانسان فى فترات حياته كلها . . ومن هنا وجبت دراستها والعناية بأمرها للوصول بها إلى الكمال الذى جاءت به الأديان السماوية كلها ، أو إلى تحقيق القوانين التى أرادتنا الطبيعة أن نكون عليها لنسعد ، ولا نكون عليها لنشقى ونتألم .

وأرى من الفضول أن ألفت نظر قراء هذه المجلة إلى أن الميل نحو الجنس الآخر ليس معناه العشق الذى ينتج عنه فجور وفسق ، كما أنه ليس معناه الميل لآلية يشاطرها الحياة التناسلية.

ومن النقط الآتية يرى القارىء أن الانسان يعشق مباشرة بمجرد ولادته ! !

من هى التى يعشقها الطفل؟

يقولون عادة إن الطفل يحب أمه ، ولقد أغالى فأقول إنه يعشقها ، وما فى هذا من ضير أو خروج بالمرة . . أليس العشق هو الكلف الزائد ؟ وهل الكلف الزائد إلا العشق ؟

وإذا كان الطفل يعشق أمه ، فانه لا يعشقها عبثاً أو بغير سبب ، بل إن من السذاجة كل السذاجة

أن نقرر أن الطفل لا يتغذى — وهو في بطن أمه — تغذية مباشرة، ينتج عنها عرق وتبول وتبرز، وإنما هو يتغذى غذاء تكوينياً غير مباشر، فإذا أخذنا برأي فونتين مان Fountain—mann الذي يقول: إن قطرة المادة المنوية تحوي جزءاً من قطرة إدراك، جاز لنا أن نستنتج من هذا أن الطفل يبدأ إدراكه وهو في تكوينه في بطن أمه، فاذا بدأ عنده الادراك في بطن أمه — ولو إلى حد ضئيل للغاية — فما من شك في أنه يأسف أسفاً غرزياً لفراقه ذلك المكان من بطن أمه، حيث يجد الراحة والغذاء، وسائر وسائل الحياة التي يستلزمها الجو الذي يعيش فيه.

فاذا خرج إلى الحياة فانه يدرك — وقت مجيء الطبيبة لتباعد بينه وبين أمه — أنه فقد نعيماً كان فيه.. ويظل مدة لا تقل عن عشر ساعات — بناء على ما أثبته علم الطب الحديث — لا يتناول غير مادة صلبة، غريبة عنه بالنسبة له — فاذا وجد بعد انقضاء الساعات العشر، أن شيئاً حياً يدخل إلى فمه كله حنان ودفء، ليسكب فيه سائلاً لا يمكن أن يوافقه غيره، زاد كلفه بنعيمه السابق، وزاد عشقه لمصدر هذا النعيم وهو الأم.

وتظل الأم تغذي طفلها وترعاه. فاذا هو فتح عينيه — بعد سبات — لم تقع عيناه إلا على عينيها الوديعتين، اللتين تنمان عن العشق كله، وإذا بكى لم تبصر عيناه إلا أمه تسرع إليه تعوده، ولم تسمع أذناه إلا أغانيها الحلوة الساحرة التي تخدر أعصابه فينام، بعد أن يلمس فوه ثدي أمه الحنون.

وهكذا يظل الطفل، كلما ازدادت أحاسيسه وحاجاته، وكلما ازداد إسراع الأم إلى إجابته إلى ما يريد، وتوفير الوسائل له، زاد كلفه بها وعشقه لها، حتى يكون من ذلك طفل آخر فنغير حال طفلنا قليلا.

عشق الطفل بعد الثالثة:

ولما كان الطفل في بطن أمه لا يعرف شيئاً عن والده، وكذلك حين يخرج إلى الوجود حيث يلازم أمه — بادراكه الضعيف — حتى في فراشها الخاص، لذلك تراه لا يكاد يشعر بوجود والده إلا بعدما لا يقل عن ستة شهور، أي بعد أن يتقدم إليه والده بحنانه الأبوي الغرزي الموجود فيه، ليداعبه ويحاول أن يوقظ من حواسه، التي تكون متفتحة تؤدي وظائفها الفسيولوجية إلا في حالة المرض أو الشذوذ الطبيعي، هنا فقط يبدأ عقله الباطن، يدرك بالغريزة أن ذلك الذي يداعبه له عطف عليه وحنان، ثم يسمع كلمة.. (بابا).. (بابا).. (بابا)

ترن فى أذنيه،فيبدأ يدرك ـ بالباطن أيضاً ـ أن ذلك الذى يغدق عليه العطف والحب إنما هو «بابا».. ولكن من « بابا » هذا ؟ ! ذلك مالا يدركه إلا بعد مرور عام كامل على الأقل، ونقصد بالادراك هنا إدراك العقل الواعى .

ومن هنا يبدأ يكلف به هـو الآخر أيضاً ، ولكن بدرجة تقل عن كلفه بأمه، وذلك نظراً لمعرفة أبيه بعد إذ عرف أمه بعامين تقريباً ، فقل إذن إن عشقه لأبيـه يقل عن عشقـه لأمه بما يوازى فرق هذين العامين . . . .

ولقد تحل محل الأم مربية أو مرضعة أو ماشا كلهما، وهذه ينالها من حبه شىء أيضاً، ولكنه حب لايلبث حتى يزول بعد إذ يعرف ـ بعقله الواعى ـ أن هذه التى خصها بشىء من حبه لا تخدمه بدافع طبيعى، وإنما بدافع صناعى محض، هو خوفها ـ إن هى لم ترعه كما يجب ـ إقالتها وتنصيب غيرها لتقوم على خدمته ، مادام يمكن الحصول على ذلك بقليل من المال .

وبعد إذ يبلغ الطفل الثالثة من حياته ، يبدأ حبه يتوزع بين سائر من يعطف عليه ،ويقوم على راحته ، ثم تتقدم به السن ويذهب إلى المدرسة ليقضى بين زملائه وإخوانه جزءاً من النهار كبيراً، فيقتطع جزءاً من حبه الذى وزعه بالكيفية السابقة، ليعطيه لمن يلاعبونه من زملائه وزميلاته... ولاحظ كلمة « زميلاته » هذه ، فإنها تهمنا كثيراً ، بمجرد بدء دور المراهقـة !! ويلاحظ أيضاً أنه ـ حتى هذه السن ـ يعامل زميلاته نفس المعاملة التى يعامل بها زملاءه، ولو أنها معاملة لايقصد منها أى قصد ، وكل ما فى الأمر أنه يبدأ يفضل اللعب مع إحدى الزميلات ! ! ولا يرجع هذا إلى أكثر من تدرج الغريزة الجنسية فى النمو .

فترة المراهقة والأليفة :

وبعد الحادية عشرة ، وعند كلا الجنسين ـ وفى بعض الأحوال بعد الثانية عشرة حتى الرابعة عشرة ـ يشعر الفرد بنوع من الانقباض يلازمه فى حالة انفراده، وكذلك فى حالة اجتماعه بلداته من جنسه أيضاً... وعلى نقيض ذلك يشعر بانشراح صدره ووسعة فى آماله عند مايخلو المكان إلا منه ومن فرد من الجنس الآخر . . . فإذا حدث أن اختليا مرة ـ وهى خلوة لاشىء فيها حتى الآن ـ فإن انقباضه يزول ساعتئذ فقط ، ولكنه يزداد عند ما يفارق هذا الأليف، وفى ازدياد الانقباض مايعمل على ازدياد الخلوات... وفى ازدياد الخلوات زيادة للانقباض أكثر... وهكذا حتى يضيق ذرعاً ويبدأ يشعر بالحاجة إلى ضرورة وجود الأليف باستمرار، ومن ثم يبدأ تفكيره بطريقة جدية فى حيازة هذا الأليف فى كل الأوقات، ليذهب عن نفسه الانقباض.

وليس غريباً أن نذكر للقراء أن دور المراهقة من شأنه ازدياد الحاجة إلى الخلوة لما تتطلبه المراهقة من إرضاء الغريزة الحيوانية .

وترى الفرد في بادىء الاختلاء جباناً عن الادلاء إلى زميله بما يشعر به نحوه ، ولكن الظروف القهرية وازدياد العقدة النفسية تعقداً تخلق من الجبان شجاعا. فتراه في صراحة أو اضطراب يصارح أليفه بضرورة التعاشر حتى تلتئم جراح كل من النفسين ، وقد يكون الرد صداً وقد يكون قبولا ... وقد يحدث تحول من أليف إلى أليف .. في حالة الاصابة بنوع من الشذوذ الجنسي ، ولكن الأمر ينتهي في النهاية بالتعاشر أو الزواج أو ماشاكل ذلك ؛ وهذه أشد فترات الحياة الانسانية خطورة : لأن نيران الغريزة تتأجج فيها إلى أقصى الحدود .

يريد ابنته خادمة أكثر منها زوجة :

فاذا تم التعاشر ، كثرت الخلوات وساعدت اللذة والنشوة — التي يجدها كل من المتعاشرين — على الاكثار منها ، ولا عجب في ذلك مطلقاً ، فان في الاكثار منها انشراحاً نفسياً كثيراً إلا أن لكل شيء حداً ، وكل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، أو على الأقل سئمته النفس وملته ، فيبدأ الشعور بالحاجة إلى الخلوة يتناقص تدريجياً ، كما ازداد تدريجياً ، وهذا هو رد الفعل الطبيعي : وهناك أسباب ودواع ظاهرية تساعد على هذا التناقص ، منها تقدم السن ، ووجود النسل ، واتساع البيت وحاجاته ونفقاته ، وانصراف الرجل إلى عمله أكثر من زوجه وشهيته يدافع غريزة أخرى تبدأ في التسيطر : تلك هي غريزة « حب إسعاد النسل » . وهناك أسباب قهرية قد تدعو إلى الاقلال من الخلوة ، في الوقت الذي يجب أن تكون فيه خلوة ، كالأمراض التناسلية أو الأمراض الصدرية أو الأوبئة ، إذا أصيب بها أحد المتعاشرين في بادىء الحياة الزوجية .

يريدها أختا لا أكثر ولا أقل :

فاذا قلت حاجة المتعاشرين إلى الخلوة وبدأ كل منهما يستغني عن الاختلاء بصاحبه ، فان كلا منهما يشعر أنه قد اتصل بصاحبه بأشياء أخرى غير الرباط التناسلي ، وأنزله عنده حقوقاً في نظير واجبات . ويتراضى المتعاشران على هذا ، فيقنع كل منهما بأن يكون صاحبه خادماً له . فالذكر خادم للأنثى من حيث العمل على تشييد البيت وقضاء الحاجة والكفايات ، والأنثى تهيء لعشيرها بيتاً سعيداً وذرية قوية سليمة ؛ وليس معنى هذا أن العلاقات التناسلية بينهما تنعدم .

فاذا ما تقدمت السن بالمتعاشرين أكثر من ذلك ، فان رغبة كل منهما تتجه إلى الآخر اتجاهها من أخ إلى أخته لا أكثر ولا أقل .